موسوعة
المعرفة المسيحية

آباء الكنيسة

٣

أوريجانيس

عبقريّ المسيحيّة الأولى

بقلم
هنري كريمونا

دار المشرق
بيروت

طُبع هذا الكتيّب بمساهمة عائلة جرجي نعمة الله عقّاد

موسوعة
المعرفة المسيحية

آباء الكنيسة

٣

أوريجانيس

عبقريّ المسيحيّة الأولى

بقلم
هنري كريمونا

دار المشرق
بيروت

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للاّتين
بيروت، ٢٢ تشرين الثاني ١٩٩٠

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ١٩٩١
دار المشرق ش م م - ص.ب. ٩٤٦، بيروت

ISBN 2-7214-4636-3

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
ص.ب. ١٩٨٦ - بيروت، لبنان

المقدّمة

آباء الكنيسة هم اللاهوتيّون الكبار الذين أزهروا في القرون المسيحيّة الأولى، وكانوا، قبل أيّ شيء آخر، شهود الوحي المسيحيّ الذي تسلّموه من الرسل. والآباء هم أساقفة، علّموا أسس الإيمان الحقّ، وكتبوا نشرًا للفكر المسيحيّ ودفاعًا عن الإيمان في وجه الهراطقة والمشكّكين. وشهادتهم الأُولى لم تكن على مستوى الفكر والمعرفة فقط، بل على مستوى قداسة السيرة أيضًا وخاصّةً. فهم شهود المسيح بالقول والفعل.

إلى جانب الآباء، أنبتت الكنيسة عباقرةً كبارًا كان لفكرهم ولاهوتهم التأثير الكبير في حياة الجماعة المسيحيّة. لكنّهم لم يُدعَوا آباء لأنّهم لم يكونوا أساقفة، ومنهم أوريجانيس وترتليانوس. والصفة الأساسيّة التي تجمع بين كافّة الآباء والمعلّمين هي أنّهم كانوا رعاة، بما للكلمة من معنى إنجيليّ: أخذوا على عاتقهم البشارة والوعظ والإرشاد. وهذا ما نجده واضحًا عند كلّ من أوريجانيس وأوغسطينس، وهما يعتبران من أكبر عباقرة المسيحيّة.

ليس من السهل التكلّم عن أوريجانيس، لا سيّما أنّ الزمن

الذي يفصلنا عنه قضى على الكثير من آثاره، ولم يبلغنا من كلّ كتاباته سوى القليل. يتمحور فكر أوريجانيس حول الكتاب المقدّس: منه انطلق منذ حداثة سنّه، وإليه وجّه جهوده، ناشرًا، شارحًا، معلّمًا ومعلّقًا. فالكتاب المقدّس، بالنسبة إليه، هو حضور المسيح بين البشر، على نحو ما يكون سرّ الإفخارستيّا. فيه نجد الحياة، ومن حرفه ننطلق نحو مجال الروح لنلاقي الربّ في فسحات الإيمان.

يبقى أوريجانيس ذلك العبقريّ واللاهوتيّ الذي طبع بنفحة روحه وفكره القرون المسيحيّة الأُولى لغاية القرن السادس. ولو جرت الأمور في حياته، بخلاف ما جرت عليه، خاصّة بعد أن خصى نفسه، آخذًا بحرفيّة الإنجيل[1]، لكانت الكنيسة قد رفعته فوق المذابح... ! هذا لا يمنع من أن نقدّر قداسة سيرة أوريجانيس وتعلّقه العميق بالمسيح والكنيسة، وتوقه المطلق إلى الشهادة.

(١) «هناك خصيان خصاهم الناس، وهناك خصيان خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات» (متّى ١٩/١٢). والآية تجازٌ يثني على التعفّف في سبيل خدمة الله والقريب.

الفصل الأوّل

حياة أوريجانيس

وُلد أوريجانيس سنة ١٨٥ من عائلة مسيحيّة ميسورة في الإسكندريّة. فنَما في جوّ روحيّ مسيحيّ، لاسيّما أنّ والده ليونيداس اهتمّ مباشرة ومنذ حداثة سنّه بتعليمه الكتاب المقدّس.

وتابع أوريجانيس دروسه، في معهد الإسكندريّة الشهير على يد إكليمنضوس الإسكندريّ، فكان تلميذًا لامعًا ومميَّزًا. ولمّا اشتدّت عمليّات الاضطهاد التي قادها سبتيموس ساويروس ابتداءً من سنة ٢٠٢، أُقفلت المدرسة وسِيق والد أوريجانيس إلى الاستشهاد. فهبّ الابن الشابّ لمرافقة والده والاستشهاد معه... إلاّ أنّ تدخُّل والدته الحازم منعه من تنفيذ قراره. ويُذكَر أنّ الرسائل التي تبادلها مع والده في المنفى كانت بمثابة دليل ساطع على اضطرام إيمانه حيث قال لوالده مشجّعًا: «لا تتراجع أبدًا، ولا تضعف من أجلنا»[1].

(١) كانت هذه الرسالة الموجّهة إلى والده توطئة لكتابه: «إرشاد في سبيل الشهادة»، الذي يُعتبر من أجمل كتاباته.

وهكذا فقد وجد أوريجانيس نفسه، وهو في سنّ الثامنة عشرة، مسؤولاً عن عائلة كبيرة مؤلّفة من والدته وستّة إخوة له. ولم يتسنَّ للعائلة الاستفادة من ممتلكات ربّ الأُسرة، إذ تمّت مصادرة هذه الممتلكات، ممّا ضيَّق أحوال العائلة. فتقدَّمت سيّدة مسيحيّة ثريّة من الإسكندريّة لمساعدة والدة أوريجانيس ومنحها ما يلزم من المال... ولكن لمّا علم أوريجانيس أنّ تلك السيّدة على علاقة مع الغنوصيّ[٢] بولس، رفض المساعدة، وقرّر العمل بنفسه... إذ إنّ نقاوة الإيمان وصفاءه كانا، بالنسبة إليه، أثمن من كلّ خيرات الأرض.

سعى أوريجانيس لتأسيس مدرسة في مدينته، ما لبثت أن لاقت نجاحًا كبيرًا، ممّا استرعى انتباه الأسقف ديمتريوس. فأوكل هذا إلى أوريجانيس مهمّة تعليم وتهيئة طالبي العماد، وكان المعلّم لا يزال في العشرين من عمره. ولمّا كان يبتغي تعميق معرفته وتوسيع آفاق فكره وتقدّمه العلميّ، وخاصّةً تدعيم حجّته في مواجهة العلماء الوثنيّين في المدينة، تتلمذ على يد الفيلسوف أمُونيُوس ساكا، الذي كان في الوقت ذاته معلِّم أفلوطين. وهكذا

(٢) الغنوصيّون أتباع الغنوصيّة وهي، في الواقع، انحراف عقليّ وتجاوزٌ في استخدام العقل لكشف أمور تتخطّى أُطُر العقل بواسطة العقل ذاته. إنّها وهمٌ ببلوغ الخلاص عن طريق العقل.

تسنّى للطالب الطموح درس الفلسفة اليونانيّة وتعلُّم اللغة العبريّة.

وما لبث أوريجانيس أن تخطّى إطار الدروس لطالبي العماد ليرئس مدرسة «الديداسكالي»[٣] المسيحيّة التي كانت مزدهرة في الإسكندريّة منذ أيّام معلّمه أكليمنضوس. فكانت هذه المدرسة بمثابة صرح علميّ مسيحيّ يناهض المدرسة الوثنيّة. وإذ عرفت هذه المدرسة شهرةً واسعة، اضطُرَّ أوريجانيس إلى أن ينوِّع ويكثِّف الدروس، فأوكل إلى هيراكلاس مهمّة تعليم المبتدئين واحتفظ لنفسه بالتلامذة المتقدّمين.

من هذه المدرسة كانت انطلاقة حياة أوريجانيس وشهرته. وراح يكرِّس حياته للوعظ وشرح الكتاب المقدَّس متأثِّرًا بتوجيهات بانتينوس وتعليم أكليمنضوس، وكلاهما يعتبر الثقافة اليونانيّة أساسًا فكريًّا ضروريًّا ليتمكّن الإنسان من فهم وتقبّل التعاليم المسيحيّة.

---

(٣) أنشأ هذه المدرسة في الإسكندريّة بانتينوس، بعد أن اهتدى إلى الإيمان المسيحيّ. وبانتينوس هذا وثنيّ أصله من جزيرة صقلية، وقد أصبح فيما بعد مبشِّرًا بالإنجيل في بلاد الهند. وبحسب مقتضيات الزمن كانت هذه المدرسة بمثابة جامعة وندوة: فهي جامعة لكثرة المواد التي تدرَّس فيها، وندوة لقلّة عدد التلاميذ الذين يتجمّعون حول معلِّم واحد.

واضطرّ أوريجانيس أن يسافر عدّة مرّات، ممّا أوقف لبعض الوقت مسار تعليمه في المدرسة. فزار سنة ٢١٢ مدينة روما الخالدة. ومن ثمّ، ما بين ٢١٥ و٢١٦، سورية وفلسطين وبلاد العرب، وطلبت منه جوليا والدة الإمبراطور ألكسندروس ساويروس أن يشرح نظريّته الفلسفيّة ومعتقداته اللاهوتيّة وأن يُسدي النصائح والمشورات، واستقرّ لبعض الوقت في فلسطين حيث طلب منه أُسقف قيصريّة أن يعطي محاضرات حول الكتاب المقدّس داخل حرم الكنيسة. فكان هذا الأمر مستحدثًا إذ لم يكن من المألوف أن يقف أحد العلمانيّين ويلقي المواعظ في الكنيسة. ثمّ استدعاه أسقفه من الإسكندريّة فعاد إليها سنة ٢١٨ ليتابع إلقاء الدروس في مدرسة المدينة.

من الصعب تخيُّل حياة أوريجانيس والتكلّم عن ولعه الروحيّ وتبيان تنوّع أعماله. فهو لا يهتم بأخطار محدقة به من جراء الاضطهاد، ولا يتردّد في مرافقة ومؤازرة أصحابه الذين يُساقون إلى العذاب، فلقد قرّر أن يهب حياته للمسيح، ولا شيء بإمكانه أن يفصله عن محبّته. وإلى جانب ذكائه الحادّ، كان مثالاً في التقشّف، يمارس حياة الزهد التي ألِفها رهبان الصحراء...

وانطلاقًا من مدرسة الإسكندريّة ذاع صيت أوريجانيس، فكان الباحثون والطلاّب يحومون حوله شغفًا بذكائه وسعة

معرفته، وخاصّة الطالبات الجميلات. وإذ كثرت الأقاويل والمهازحات حوله، اتّخذ قرارًا بتطبيق كلام الإنجيل بحرفيّته، فخصى نفسه عملاً بقول الربّ: «... هناك من يخصون أنفسهم من أجل الملكوت»(٤).

في هذه الفترة، تعرّف أوريجانيس إلى رجل ثريّ كان وثنيًّا واعتنق الإيمان المسيحيّ على يده، ويُدعى أمْبرُوسِيوس. فوضع هذا في تصرّفه فرقةً من سبعة كتبة، يتناوبون ساعةً بعد ساعة ليكتبوا ما يمليه عليهم أوريجانيس، ثمّ يعملون على نسخ ونشر هذه الكتب(٥).

وكانت حميّة أوريجانيس الفكريّة والأدبيّة والروحيّة تتدفّق منه كالينبوع الذي لا ينضب. فهو لا يتردّد في التعليم والإرشاد بقوّة ونشاط. وهو مولع بكلّ ما يتعلّق بأمور الإيمان وبكلّ ما يتيح لروحه الانعتاق من الزمن والولوج إلى مجال الأبد الإلٰهيّ. فالكتاب المقدّس يجتذبه. فيلبّي شارحًا النصوص ومصحّحًا الترجمات ومعلّقًا عليها... والتعمّق في معرفة الله تلهمه كتابة

---

(٤) متّى ١٩: ١٢

(٥) يُقال بأنّ لأوريجانيس ستّة آلاف مؤلّف...! ويقول القدّيس هيرونيموس بأنّ له أكثر من ألفي مؤلّف. هذا إلى جانب مراسلاته العديدة.

العديد من التفاسير والتعليقات والشروحات. فهو فيلسوف، ولاهوتيّ، ولغويّ، وباحث في علم الأخلاق، وحقوقيّ، وحتّى شاعر غنائيّ... إنّه متنوّع المواهب، متّقد الذكاء... وقد أصبح ذا شهرة عالميّة من الإسكندريّة إلى أنطاكية إلى روما إلى شمال أفريقيا...

هل يمكن القول بأنّ هذه الشهرة كانت من الأسباب التي أثارت الحسّاد والتي كانت وراء انفصاله عن ديمتريوس أسقف مدينته الأمّ؟ فخلال رحلة له إلى بلاد فلسطين سنة ٢٣٠، ارتضى أوريجانيس أن ينال الرسامة الكهنوتيّة على يد بعض أساقفة فلسطين، ممّا دفع أسقفه في الإسكندريّة إلى إصدار أحكامه وإدانته علنًا، وتجريده من حقوقه الكهنوتيّة[٦] وخاصّة منعه من الإقامة والتعليم في الإسكندريّة[٧]. فاستقرّ أوريجانيس في قيصريّة فلسطين (شمال غرب أورشليم)، واضعًا نفسه تحت حماية أسقف المدينة، وتابع نشاطه معلّمًا وواعظًا وأعاد افتتاح مدرسته التي ما لبثت إن عرفت نجاحًا باهرًا، شبيهًا بنجاح

(٦) كانت هذه الرسامة الكهنوتيّة باطلة فعلاً بسبب حالة الخصاء التي كان فيها أوريجانيس.

(٧) في الواقع، خضع أوريجانيس لقرار أسقفه.

مدرسة الإسكندريّة. وبفضل أوريجانيس أصبحت قيصريّة المركز الفكريّ المسيحيّ الأكثر تألّقًا. وفي هذه المدينة استكمل أوريجانيس نضوجه الفكريّ والروحيّ إذ أصبح اللاهوتيّ الأكثر شهرة والأوسع تأثيرًا، يأتون إليه من المشارق والمغارب للاسترشاد.

سنة ٢٥٠ اشتعلت جذوة الاضطهاد بقيادة الإمبراطور ديسيُوس فكان أوريجانيس من عداد المستهدفين، وأبدى كلّ استعداد للاستشهاد في سبيل المسيح رغم تقدّمه في السنّ. لكنّه ما لبث أن أُطلق حرًّا. ويقول المؤرّخ أوسابيوس: «عانى أوريجانيس من قيود السلاسل، وتحمّل عذابات الجسد، وعانى الأسر في الزنزانات لأيّام عديدة... وأُوثقت قدماه... فتحمّل بشجاعة كلّ هذه العذابات». وبعدما أُطلق سبيله لجأ إلى مدينة صور حيث عاش حوالى السنتين، توفّي بعدها وهو ممتلئ من الربّ، فقير الحال، وقد ناهز عمره آنذاك الثمانية والستّين.

الفصل الثاني

آثاره

سنعرض في ما يلي لأربعة أنواع من المؤلّفات، منها حول الكتاب المقدّس، ومنها المؤلّفات اللاهوتيّة، ومنها الروحيّة، وأخيرًا المراسلات.

أوّلاً: المؤلّفات حول الكتاب المقدّس

الكتاب المحوريّ في حياة أوريجانيس يبقى الـ Hexaples أي الأعمدة الستّة، وهو كتاب يحتوي في صفحاته على ستّة أعمدة، في كلّ واحد منها ترجمة معيّنة للكتاب المقدّس في عهده القديم.

* يورد العمود الأوّل النصّ العبريّ بالحرف العبريّ.
* ويورد العمود الثاني النصّ العبريّ بالحرف اليونانيّ.
* والعمود الثالث يورد النصّ اليونانيّ لترجمة أكيلا[1].
* والعمود الرابع يورد النصّ اليونانيّ لترجمة سِيمّاك.

(١) هو يهوديّ اعتنق المسيحيّة. ترجمته حرفيّة نقلاً عن النصّ العبريّ الأصليّ.

* أمّا العمود الخامس فهو للترجمة السبعينيّة (SEPTANTE)[٢].
* ويورد العمود السادس النصّ اليونانيّ لترجمة تاودوثيون[٣].

إلى جانب النصوص الستّة، ألّف أوريجانيس ثلاثة أنواع من الشروحات، لكلّ كتاب من كتب العهد القديم:

النوع الأوّل هو تفاسير لكلمات أو لمقاطع محدَّدة وصعبة الفهم. والنوع الثاني هو شروحات موسَّعة وعلميّة للكتب المقدّسة، يتبيّن لنا من خلالها سعة علم أوريجانيس في كافّة الميادين. ومنها: التاريخ، والفلسفة، واللاهوت، وفقه اللغة. والنوع الثالث هو عظات يشرح فيها معاني نصوص الكتاب المقدّس. ولم يصلنا من هذه العظات سوى ٢٤٠ عظة من أصل ٥٧٤.

---

(٢) دُعيت هذه الترجمة سبعينيّة لأنّه، بحسب الأسطورة، قام بهذا العمل سبعون كاتبًا، كلّ واحد عل حدة، فتوصّلوا إلى ترجمة واحدة. معنى الأسطورة أنّ مثل هذه الترجمة، الواحدة رغم تعدّد المترجمين، لا يمكن أن تكون إلاّ من وحي الله. تمّت هذه الترجمة في الإسكندريّة في القرن الثالث قبل الميلاد، وهي ترجمة يونانيّة عن الأصل العبريّ.

(٣) هو يونانيّ اعتنق اليهوديّة واتّخذ من السبعينيّة نصًّا أساسيًّا وسعى إلى تصحيحه استنادًا إلى النصّ العبريّ. تعود ترجمته إلى سنة ١٥٠.

ثانياً: المؤلّفات اللاهوتيّة

نذكر هنا مؤلَّفَين أساسيّين:

* المؤلَّف الأوّل، وعنوانه «الردّ على سِلْسِيُوس» وهو دفاع عن المعتقد المسيحيّ في وجه انتقادات سلسيوس اليهوديّ. يستعرض أوريجانيس، في هذا الكتاب، مختلف المسائل والمواضيع التي يثيرها أعداء المسيحيّة، فيعالجها ليدحضها بدلائل المنطق وقوّة الحجّة.

* المؤلّف الثاني، وعنوانه «حول المبادئ»، هو أوّل خلاصة لاهوتيّة عرفتها الكنيسة قبل خلاصة القدّيس توما الأكوينيّ في القرن الثالث عشر. ألّفها أوريجانيس حوالى سنة ٢٢٩، وتُقسم إلى أربعة أقسام:

- الله، الكلمة، الروح.
- العالم، الإنسان، الخلق، نهائيّة العالم.
- الحرّيّة.
- نظريّات حول أسس شرح الكتاب المقدّس.

يشرح أوريجانيس في هذا الكتاب مفهومه لتطوّر ونهائيّة التاريخ انطلاقًا من حقيقة الله في ذاته، مرورًا بعمليّة الخلق والخلاص، ووصولاً إلى مفهوم الحرّيّة وأسس فهم الكتاب المقدّس وهو

الرباط الخلاصيّ الذي يكشف للإنسان حياة الله في ذاته. يُعتبر هـذا الكتاب أوّل بحث لاهـوتيّ في تاريـخ الكنيسة، يعـرضه أوريجانيس عرضًا منظّمًا وبطريقة منهجيّة استدلاليّة.

ثالثًا: المؤلّفات الروحيّة والأخلاقيّة

نذكر من هذه المؤلّفات:

* مقالة حول الصلاة
* إرشاد حول الشهادة
* رسالة حول العلم المقدّس، موجّهة إلى تلميذه غريغوريوس العجائبيّ.
* رسالة حول قانونيّة نصوص الكتاب المقـدّس، موجّهـة إلى يوليوس الأفريقيّ.

رابعًا: المراسلات ولم يصلنا منها سوى رسالتَيْن لا غير.

فمن خـلال المؤلّفات سنعـرض لموضـوعَـيْن، همـا: مفهـوم أوريجانيس للكتاب المقدّس، والمبادئ اللاهوتيّة الأساسيّة.

الفصل الثالث

الكتاب المقدّس في حياة أوريجانيس

أوّلاً: معاني الكتاب

تكمن أهميّة شروحات أوريجانيس للكتاب المقدّس في ضخامتها واتّساع المعلومات التي يوردها الشارح وخاصّة في بُعدها الروحيّ. فالكتاب المقدّس بالنسبة إليه يحمل، في عهدَيْه القديم والجديد، معنًى روحيًّا. وهذا المعنى لا يدركه إلاّ الروحيّون لأنّه ثمرة تأمّل وأعمال تقشّف. وهذا المبدأ قناعة أساسيّة وثابتة عند أوريجانيس. لذلك فإنّه يعتقد أنّ هناك ثلاثةً لا يستطيعون فهم الكتاب المقدّس وهم:

١ ـ اليهود، لأنّهم لم يتقبّلوا نعمة المسيح، وهم بالتالي غير مؤهّلين لأن يفهموا أنّ العهد القديم ليس سوى صورة للعهد الجديد.

٢ ـ الغنوصيّون، لأنّهم يعتقدون أنّ العهد القديم هو صنيعة إله الشرّ.

٣ ـ بعض المسيحيّين المتعلّقين بالحرف، لأنّهم لم يفهموا حقيقة الله الروحيّة.

لذلك، يدعو أوريجانيس القرّاء والمستمعين إلى تعميق معرفتهم للكتاب المقدّس، شارحًا لهم طريقته في فهم الكتاب وهي تستند إلى ثلاثة أساليب أو معَانٍ انطلاقًا من أبعاد الإنسان الثلاثة وهي: الجسد، والنفس، والروح:

* المعنى الأوّل، وهو المعنى الحرفيّ، يتعلّق به الجسديّون، ويتقيّد به مَن يكتفي بظواهر الأمور ومدلولاتها الأوّليّة الحرفيّة.
* المعنى الثاني وهو المعنى الأدبيّ، يدركه الإنسان من خلال النصوص التي تقدِّم بعض المبادئ العامّة التي يمكنها أن تسوس حياة الإنسان العمليّة والأخلاقيّة.
* المعنى الثالث وهو المعنى الروحيّ، يبلغه الإنسان الذي ينشد الخيرات الروحيَّة، والذي يسعى إلى فهم الحكمة الكامنة في النصوص وإدراك السرّ المستتر في الكتاب المقدّس.

فالكتاب المقدّس يحتلّ، بالنسبة إلى أوريجانيس، مرتبة مشابهة للوجود البشريّ في المسيح، أي أنّ الكتاب المقدّس هو شكل ظاهريّ من أشكال حضور كلمة الله في الكون. فمن

خلال الكتاب تُصبح حكمةُ الله الأبديّة وكلمته الأزليّة غِذاءً لروح الإنسان. لذلك فإنّ إدراك كلمة الله من خلال النصوص تفترض، في الإنسان، استعدادًا داخليًّا، وطاعةً لصوت الروح فيه، وبالتالي انقياد الذات لكلمة الله والاستسلام لها بوعي ومحبّة.

فكلمة الله تبقى محوَر فكر أوريجانيس، وقبلة حياته، ومصدر إلهامه. والكتاب المقدّس ليس مستندًا خطّيًّا يمكن مطالعته كبقيّة الكتب: إنّه بحرفه وروحه حضورٌ شخصيّ لله بين البشر. لذلك، وفي سبيل فهم الكتاب المقدّس، ينبغي الدخول إلى المعنى الروحيّ الذي يتخطّى المعنَيين الحرفيّ والأدبيّ. وهذا الدخول يتطلّب ما هو أكثر من البحث الفكريّ، يتطلّب الإيمان والاتّحاد الداخليّ الحميم مع المسيح. فقراءة الكتاب المقدّس ينبغي أن تكون صلاة، بمعنى أن تتمّ القراءة بشوق ولهفة ومحبّة في سبيل إدراك الحضور الإلٰهيّ الروحيّ. وبهذا الأسلوب تبنى الحياة الروحيّة لتتطابق مع الفهم الروحيّ لنصوص الكتاب المقدّس، ممّا يؤهّل الإنسان لأن يلج عالم الوحي الإلٰهيّ بصورة تدريجيّة: فالصلاة هي باب الروح.

ثانيًا: المنهج الرمزيّ في شرح الكتاب المقدَّس

لكلّ فيلسوف أو لاهوتيّ أسلوب فكريّ أو منهج يتبعه في سعيه إلى المعرفة. فهناك المنهج الجدليّ، والمنهج الاستنباطيّ، والمنهج الوجوديّ... ولأوريجانيس أسلوبه الخاصّ في شرح الكتاب المقدّس، يمكن تسميته المنهج الرمزيّ.

فمن خلال اعتماده هذا المنهج، يسعى أوريجانيس إلى فهم المعنى الروحيّ للكتاب المقدّس، ويجمع بين ثلاثة عناصر هي: الكتاب المقدّس، والنفس البشريّة، والوجود الكونيّ. بهذه العناصر يكتمل إطار المنهج ويأخذ الرمز أبعاده، فينكشف أمام أعيننا العمق الروحيّ للكتاب المقدّس. والعناصر هذه تتداخل بعضها ببعض لتشكّل مجتمِعَةً سبيلاً متكاملاً يؤهّلنا إلى بلوغ حقيقة الله.

سنعرض في ما يلي نظريّة أوريجانيس هذه، من خلال تبيان علاقة الكتاب المقدّس بكلٍّ من النفس البشريّة والكون.

١ ـ علاقة الكتاب المقدّس بالنفس البشريّة

هناك ارتباط طبيعيّ بين النفس البشريّة والكتاب المقدّس. فكلّ منهما، على مستواه، مصدر أو ينبوع حياة يحتوي على سرّ

داخليّ واحد. فمَن اختبر الواحد منهما يكون كأنّه تَوافق مسبقًا مع المفهوم النظريّ للآخر. فالواحد يعبِّر عن الآخر ويتواجد فيه، أي أنّ الذي نسمّيه، في الكتاب المقدّس، المعنى الروحيّ هو ذاته ما نسمّيه، في النفس البشريّة، صورة الله. فالمعنى الروحيّ في الكتاب المقدّس، وصورة الله في النفس البشريّة، هما رمز لحقيقة واحدة. فصورة الله تصبح منظورةً من خلال النفس، والمعنى الروحيّ يصبح منظورًا من خلال النصوص. وكلاهما، الصورة والمعنى، يتجسّدان بالفعل كلٌّ في مجاله، والذي يجسِّدهما هو المسيح ذاته الذي أوجدهما والذي يكشف عن ذاته من خلالهما.

لذلك، فإنّ النفس البشريّة والكتاب المقدّس ينيران الواحدُ منهما الآخرَ بصورة رمزيّة. فمن المؤسف إذًا أن نهمل دراسة أيّ منهما، إذ كما أنّ الإنسان بحاجة إلى الكتاب المقدّس ليَفهم ذاته من خلال كلمة الله، كذلك فإنّه باستطاعته أن يفهم الكتاب المقدّس إذا ما قرأ سرَّه في ذاته. فالكتاب المقدّس والنفس البشريّة لهما البنية الأساسيّة ذاتها، أو بالأحرى لهما الموحيات ذاتها، إذ إنّ نفحةً إلٰهيّة واحدة أوجدَتْهما، ووجهٌ إلٰهيّ واحد يشرق منهما. فالمسيح، كلمة الله، هو الذي يتردّد في كلّ منهما، إذ هو الذي خلقهما، وهو الذي يحبّهما. فالكتاب المقدّس هو الإشارة التي تكشف النفس البشريّة، كما أنّ النفس البشريّة هي الدلالة التي

تكشف الكتاب المقدّس، وكل واحد منهما هو انعكاس للآخر، محرِّك ودليل له. وجوهرهما واحد، هو المسيح.

٢ ـ علاقة الكتاب المقدّس بالكون

كما النفس، كذلك الكون، فهو موضوع قراءة روحيّة. يقول أوريجانيس: «التوافق تامّ بين تاريخ العناية الإلٰهيّة التي يخبرنا عنها الكتاب المقدّس، والكون الذي نحيا فيه... فالنور ذاته يسطع هنا وهناك، وباستطاعتنا أن نكتشفه كلّما قرأنا الكتاب المقدّس أو نظرنا إلى وجود الكائنات المتسلسل والموضوع بفطنة فائقة».

الكتاب المقدّس بناء شبيه ببناء الكون. فكما أنّ الكتاب مكوَّن من أمور منظورة وأُخرى مستترة، كذلك الكون. ألا يعلّمنا بولس الرسول أنّ «قدرة الله الأزليّة وألوهتَه، وصفاته الخفيّة، ظاهرة للبصائر في مخلوقاته»(١)؟ فالظاهر يكشف ما هو مستتر، وهنا وهناك حكمة الله ذاتها، وهي التي أشرفت بصورة متوازية على خلق الكون وعلى كتابة الكتاب المقدّس. فكلّ ظاهرة حسّيَّة في الكون، وكلّ حرف من نصوص الكتاب، له أوجُه شبه متساوية، يجعل منه مظهرًا مختلفًا من حقيقة مستترة

(١) روم ١: ٢٠.

واحدة. فهنا وهناك أنوار كلمة الله تشعّ منيرةً بصيرة الإنسان، وقد كشفت له حقيقة الله.

وهكذا نرى اكتمال الثلاثيّة: مِن النفس البشريّة إلى الكون إلى الكتاب المقدّس، فالمسيرة واحدة ومبتغاها واحد، لأنّ مصدرها واحد وهو المسيح الإله. والمهمّ في الكتاب المقدّس هو المعنى الروحيّ، والمهمّ في النفس البشريّة هو صورة الله، والمهمّ في الكون هو كلمة الله. فالمعنى الروحيّ وصورة الله وكلمته حقيقة واحدة تكشف ذاتها لنا من خلال المظاهر الحسّيّة المختلفة، أي نصوص الكتاب، والنفس البشريّة والوجود الكونيّ. فمن هذه المظاهر الثلاثة يدعونا أوريجانيس إلى الانطلاق نحو إدراك الحقيقة الداخليّة الواحدة وهي حقيقة الله الروحيّة.

الفصل الرابع

النظام اللاهوتيّ ـ «حول المبادئ»

يعرض أوريجانيس في هـذا الكتاب سبـل البحث اللاهـوتيّ الخاصّ بالروحانيّـين الذين تقبّلوا نعمـة الحكمة والعلم. ففي توطئة الكتاب يوضّح المؤلّف أنّ الروحانيّين عليهم أن ينطلقوا في بحثهم اللاهوتيّ، لا من المعطيات العقليّة البشريّة، بل من أسس الإيمان التي حدّدها الرسل في العهد الجديد، أي أنّ هناك مهمّتَيْن تنتظران هؤلاء:

المهمّـة الأولى وهي ترتسم في حـالة واحـدة، أي أن يكون الرسل أنفسهم قد أكّدوا وحدّدوا حقائق الإيمان بصورة واضحة ونهائيّة. فتقتصر مهمّة الروحانيّين عندئذ على شرح هذه الحقائق وتبويبها وتحديد الروابط فيما بينها ضمن نظام واحد متكامل.

والحقائق الإيمانيّة المحدَّدة تتعلّق بوحدة الله، وبانبثاق الابن وتجسّده بين البشر، وبالعمل الخلاصيّ للروح القدس. كما أنّها تتعلّق بمصير الأرواح بعد الموت، أي بالسعادة الأبديّة أو بالهلاك الأبديّ.

المهمّة الثانية ترتسم في حالة مختلفة عن الأولى، أي عندما تكون حقائق الإيمان قد تمّ تأكيدها دون تحديدها أو توضيح أسسها من قِبَل الرسل. ففي هذه الحال يتوجّب على الروحانيّين أن يحدّدوا محتوى هذه الحقائق ويشرحوا أسسها.

وهذه الحقائق تتعلّق بمفهوم علاقة الروح القدس بابن الله، وبمصدر الأرواح والملائكة والشياطين، وبعلاقة عالم البشر بالعوالم الأخرى السابقة واللاحقة...

هاتان المهمّتان لا تهدفان، بحسب أوريجانيس، إلى بناء نظام لاهوتيّ مطلق ونهائيّ. فالروحانيّون لا يأتون بعمل تنظيميّ مغلق، بل يُجرون تمارين روحيّة يسعون من خلالها إلى فهم الإيمان بصورة أعمق، والتأمّل بالحقائق الإيمانيّة والروحيّة.

ويُقسم الكتاب إلى أربعة أجزاء يمكن تبويبها في بابَين أساسيّين وخاتمة:

الباب الأوّل ويتعلّق بمصدر الأرواح ومصيرها. يبيّن أوريجانيس فيه كيف أنّ الله روح دون جسد، وأنّ الابن كلمة الله يتمتّع مع الروح القدس بحقيقة الله الجوهريّة الواحدة. والأسماء المعطاة لهم في الكتاب المقدّس ليست سوى تسمياتٍ لأدوار يحقّقونها في مسيرة الخلاص.

إنطلاقًا من هذه الحقائق الإلٰهيّة، يطرح أوريجانيس موضوع مصدر الأرواح. ويؤكّد أنّ مسيرة الخلاص، وبمجرّد أنّها مسيرة خلاص، تعني أنّ هناك من أرواح أصبحت بحاجة إلى خلاص، أي أنّها سقطت... فيقول أوريجانيس إنّه في البدء كانت الأرواح متساوية ومتّحدة فيما بينها، تتأمّل تأمُّلاً طوباويًّا بالثالوث الأقدس. وهذا الوجود الطوباويّ جعل هذه الأرواح تكتفي بذاتها وتنغلق على هذه النشوة التي أعدّتها، ممّا دفعها إلى أن تتلاشى في ذاتها، فأدّى هذا الانغلاق إلى إضعاف شدّة التأمّل بالثالوث، وبالتّالي إلى ابتعاد الأرواح عن الله واحتجابها بعضها عن بعض.

والفرق بين الروح الملائكيّة والروح البشريّة لا يكمن في أنّ أرواح الملائكة تنتسب إلى طبيعة مختلفة عن طبيعة الأرواح البشريّة، بل لأنّ النزعة الداخليّة للروح البشريّة تنحو بها إلى الوجود المادّي أكثر من الروح الملائكيّة. فالمادّة، في نظر أوريجانيس، ليست سبب سقوط الأرواح البشريّة، بل هي نتيجة هذا السقوط. من هنا يخلق الله العالم المادّيّ، أي يوجد الفسحة الزمنيّة التي، من خلالها، يمكن للأرواح البشريّة المتجسِّدة أن تتأهّل وتبلغ الطهارة الأصليّة التي كانت فيها قبل السقوط، بعد أن تختبر المحن والتجارب في العالم المادّي.

لكن، وبحسب أوريجانيس، لا يمكن للروح البشريّة أن تبلغ الطهارة الأصليّة من خلال مرور واحد عبرَ العالم المادّيّ، إذ إنّ هناك بعض الأرواح تتابع سقوطها باستمرار، في حين يتمكّن البعض الآخر من الصعود الجزئيّ، ممّا يحتّم عليها معاودة التجسُّد في عوالم وأزمنة متعدّدة ومتتالية، إلى أن تبلغ وحدتها الأصليّة.

الباب الثاني ويتعلّق بدحض نظريّات الغنوصيّين. فيتبع أوريجانيس الترتيب ذاته الوارد في الباب الأوّل، لكنّه يتّخذ هنا شكل الجَدَل اللاهوتيّ سعيًا لنقد ونقض وتصحيح نظريّة الغنوصيّين.

يسعى أوريجانيس، أوّلاً، إلى تبيان وحدة الله في العهدَين القديم والجديد: فإله المحبّة في العهد الجديد وإله الشريعة في العهد القديم هما إله واحد. والغنوصيّون يعترضون على هذه الصورة. وروح المسيح، التي بها تمّ تجسُّد الكلمة الإلهيّة، بقيت وحدها من بين جميع الأرواح، متّحدة بكلمة الله. لذلك حلّ فيها كمال جوهر الكلمة.

ويتوقّف أوريجانيس عند موضوع يهمُّه كثيرًا، وهو مصير الأرواح. فيقول بأنّ الله قد خلق هذه الأرواح ومنحها الحرّيّة على صورة حرّيّته كي تمارسها بفعل إراديّ يصدر عنها ويؤهّلها للدخول في النعمة الإلهيّة. لكنّ هذه الحرّيّة، ولأنّها كذلك،

تفترض في ذاتها إمكانيّة الخطأ. والخطأ يكمن في ابتعاد الأرواح عن الله وبعضها عن بعض. وهذا الخطأ هو نتيجة فعل إراديّ حرّ وليس نتيجة تدخّل مباشر من إلٰه الشرّ، كما يعتقد الغنوصيّون.

فالحرّيّة هي عنصر أساسيّ وجوهريّ في عمليّة الخلق وفي المصير الكونيّ. فالعقل الإلٰهيّ خلق الكائنات العاقلة حرّة لكي تصبح عاقلة بملء حرّيّتها فتتمكّن من امتلاك الهبات التي تعطى لها مجّانًا وبكلّ حرّيّة من لَدُن الله.

لكنّ ممارسة هذه الحرّيّة، كما ورد سابقًا، تحتّم المرور بمِحَن وتجارب عديدة، وهذا هو معنى الزمن الكونيّ. فالحرّيّة هي التي أدخلت في صميم الوحدة التشتّت والتمزُّق والاغتراب والغيريّة... ممّا أدّى إلى ظهور مستويات مختلفة للوجود البشريّ ضمن تراتبيّة تتراوح ما بين العلاقة الحميمة مع الله والعداء الكامل له. ولتعطيل هذا الخلل وإعادة التوازن، ينبغي على العقل أن يجمع التشتُّت ويُعيد رأب التصدُّع والتمزُّق من خلال المرور في عوالم حسّيّة مختلفة، تطول فيها الإقامة أو تقصر. ففي هذا الوجود الزمنيّ تتبيَّن فاعلية العقل ويظهر مدى تأثيره في الحرّيّة. فمهمّة العقل تقتصر على تشذيب الحرّيّة وتدريبها وتأهيلها لكي تبلغ بالروح إلى مرحلة التمتُّع برؤية الله حيث تجد وحدتها الأصليّة.

وإعادة التوازن والوحدة الكاملة إلى الأرواح البشريّة كافّة يكون الدليل النهائيّ على أنّ هذه الأرواح أصبحت أرواحًا بفعل حرّيّتها الذاتيّة، أي أنّها تكون قد انتسبت فعلاً، وبإرادتها الحرّة، إلى الوحدة الإلٰهيّة. لهذا يمكن القول، بحسب أوريجانيس، إنّ الطبيعة البشريّة ليست سوى ظاهرة عرضيّة زمنيّة مؤقّتة، لأنّ الروح البشريّة هي روحيّة الأصل والمصدر، أي إلٰهيّة، لذلك فهي، في الطبيعة البشريّة، تكون في تخطٍّ مستديم للذات من أجل بلوغ الكمال الإلٰهيّ.

هنا يورد أوريجانيس فكرة غريبة عن اللاهوت المسيحيّ، فيعتبر أنّ هناك تطابقًا بين مصدر الوجود ونهائيّته، أيّ أنّه سيُصار، في ختام الأزمنة، إلى إعادة إحياء كونيّة (APOCATASTASE) يغفر الله فيها للخطأة وللشياطين المنفصلين عنه، فتعود جميع الأرواح دون استثناء إلى وحدة الله. فالوحدة النهائيّة هي التي تنتصر وتبدِّد كلَّ تنوُّع وكلَّ تشتّت... فينتصر الله على كافّة أعدائه، أي أنّه يُعيد الأرواح إلى مصدرها، إلى ذاته، فتتحوَّل الإرادات الشرّيرة إلى إرادات خيِّرة، ويصبح الله الكلَّ في الكلّ. لكنَّ هذه الفكرة تبقى يتيمة عند أوريجانيس، إذ لا نجد لها أيّ أثر في كتاباته اللاحقة والمتأخّرة.

الفصل الخامس

مسيرة أوريجانيس

سنرسم، فيما يلي، صورة عن أوريجانيس الإنسان الذي هو في الوقت ذاته رجل الكنيسة المؤمن والمدافع عنها، ونُظهر المسار الذي اتّبعه لولوج سرّ الله، وما كان الهدف المبتغى من مساره هذا.

أوّلاً: أوريجانيس الإنسان

كلُّ ما نعرفه عن أوريجانيس وصل إلينا بواسطة أوسابيوس المؤرِّخ. فأوريجانيس من أعظم وأقدر عباقرة الكنيسة والبشريّة. لذلك فإنّه من الصعب تحديد خصائص أوريجانيس وصفاته الأكثر تألُّقًا، إذ نجد عنده اتّقاد الذكاء وحدَّته، واتّساع وحيويّة معرفته، ودقّة الملاحظة، ومقدرة التحليل. فهو إنسان مؤمن، له روح تقيّة وورعة، وفضائل وصفات مسيحيّة سامية، وخاصّة نفس رسوليّة مستعدّة للشهادة حتّى الموت.

لذلك، ولكثرة مواهبه وتنوُّعها، يصعب على الإنسان إدراكه

ولا يتسنَّى اكتشافه سوى على مراحل. فهو يولِّد فينا شعورًا بأنّه لا ينضب، فيسعى المرء محدِّثه لأن يفهمه، فيجده جديدًا في كلّ مرّة يلتقيه، فيشعر بنفسه منجذبًا إليه وملتصقًا بروحه إلى أن يدرك أنّه قد أصبح متداخلاً فيه...

ورغم اتِّقاد شخصه وحميَّته، كان أوريجانيس كثير التواضع، يُظهر تحفُّظًا، يجاور الحشمة، لكلِّ ما يتعلّق بحياته. فهو ينسى نفسه، لا يُحبُّ الظهور، يبتعد عن التألُّق الاجتماعيّ، إذ لا يعتبر نفسه أكثر من وسيط مكلَّف تحقيق لقاء بين متخاطبَين وهما: الله والمؤمن المتَّحد بالكنيسة. فأوريجانيس لا يشبه إكليمنضوس بسحره الشخصيّ، ولا هو خطيب بارع مثله. كان يُملي ولا يكتب، فهو يجهل فن البلاغة وفصاحة البيان. يتكلَّم بكلّ ثقة دون استعمال سحر الكلام. صوته مستتر، خافت، عميق، يشبه النار تحت الرماد، ويحمل في ثناياه رياح الصحراء الحارقة والجافّة التي تبثُّ الشوق والحماس بعيدًا عن الرومنطيقيّة... كلمته نفحة صافية، نفحة من نار متَّقدة... وكان يكتفي بأن يشبّه نفسه بيوحنّا المعمدان، يفتح الطريق أمام الربّ، ثمّ يختفي...

ثانيًا: أوريجانيس رجل الكنيسة

أوريجانيس هو، قبل كلّ شيء، رجل مؤمن ينتمي بكلّ جوارحه إلى الكنيسة. حياته كلّها مكرَّسة للتعليم والوعظ، أي لشرح الكتاب المقدّس. على مثال إكليمنضوس الإسكندريّ، كان يعتبر المسيحيّة طريقة حياة وسبيلاً يبلغ بالإنسان إلى سرّ الله. لكنّه على خلاف إكليمنضوس يعطي أهمّيّة خاصّة للصوم والصلاة وأعمال التقشُّف والتحرُّر من المادّيّات.

لم يكتب أوريجانيس أطروحة لاهوتيّة حول الكنيسة. فأفكاره ونظرته إلى الكنيسة يمكن استنباطها من مجمل كتاباته. فالكنيسة، في نظره، هي جسد المسيح، «ومن يلمس الكنيسة، يلمس جسد المسيح». فالمعموديّة هي الباب الذي نلج بواسطته جسد المسيح، فنتّصل ببشريّته وندخل إلى سرّه.

«أريد أن أكون ابنًا للكنيسة، أحمل اسم المسيح؛ وليس لي أيُّ تطلُّع لأن أُصبح مُبدعًا لنظريّات لاهوتيّة. رغبتي تكمن في أن يُقال فيَّ، من خلال آثاري، إنّني كنت مسيحيًّا». ـ ونراه يوجّه كلامه إلى المسيح فيقول له:

«إن كنتُ، كما يعتبرني الآخرون، يدك اليمنى، وكاهنًا أُعلن كلمة الله، وحدث أن اقترفت خطأ ما إلى تعليم الكنيسة أو إلى أُسس الإنجيل، وأُصبحت بذلك حجر عثرة ومصدر شكّ

للكنيسة، فلتتَّخذ الكنيسة جمعاء قرارًا إجماعيًّا بأن تُقصيني، أنا يمينك، وتُبعدني عنك».

يشبِّه أوريجانيس الكنيسة براحاب ومريم المجدليَّة. فالكنيسة تصير قدّيسة لأنّها تغسل خطيئتها، بصورة مستديمة، بدم الصليب. ويرى أنّ سرّ الخلاص، الذي يتحقّق بالمسيح في الكنيسة، هو عمل له تأثير في كافّة مستويات وجود الكون، ويربط بين مختلف هذه المستويات: فالملائكة متضامنون مع البشر ويشتركون معهم بصلاة واحدة هي صلاة الكنيسة.

يحمل أوريجانيس ضميرًا كونيًّا مؤمنًا، فهو يصلّي لكي تُصبح الأرض سماءً، ويتبدّل الكون بالتجلّي والوحدة الروحيّة. ومعنى هذه الوحدة تكمن في وحدة آدم الجديد وحوَّاء الجديدة في فصح جديد، يشرب فيه المسيح مع البشر كافّة الخمرة الجديدة...

ثالثًا: السبيل إلى الله

مسيرة أوريجانيس نحو الله وانخطافه فيه هما في الوقت ذاته مسيرة صوب أعماق كيانه الذاتيّ. فالإيمان هو انعكاس لصورة الله فيه، من خلالها يتأمّل صورة المسيح، كلمة الله، ويكتشف في أعماقه جنَّة الله، حيث الله «يتمشّى». «فالإنسان الصالح يسعى

جاهدًا للاقتداء بالمخلّص كي يصير نسخة مطابقة لصورة الخالق فيه. وهذه الصورة تتحقّق بواسطة التأمُّل بأسرار الله بقلب طاهر منفتح . . .».

لكن هناك ما هو أبعد من حضور صورة الله فينا. هناك الوحدة الصوفيّة والتي يستلهم أوريجانيس لوصفها التشابيه والصور التعبيريَّة، كصوَر النور، والصوت، والعطر والغذاء، التي نتحوّل من خلالها إلى الله . . . وأخيرًا صور الزواج والوحدة الشخصيّة التي تتحقّق في الانخطاف الروحيّ. فالانصهار في المسيح يتحقّق على مراحل ويكتمل في السماء عندما يبلغ الإنسان ملء قامته ويستجمع تشتُّت وجوده المادّيّ، مقدِّمًا ذاته إلى الله . . . وهكذا تُصبح الخليقة كلُّها أنشودة روحيّة وفعل شكر وتمجيد لله. هنا يكمن اللاهوت كلُّه، بحسب أوريجانيس.

رابعًا: هدف أوريجانيس

إذا نظرنا إلى مدينة الإسكندريّة أيّام أوريجانيس، نلاحظ وجود منافسة حادّة بين تيّارات فكريّة ودينيّة مختلفة. . . فاليونانيُّون مع فلسفتهم، واليهود مع شريعتهم، والغنوصيُّون في سعيهم لفهم الأسرار، والمسيحيُّون بإيمانهم. . . يتنافسون فيما

بينهم ليجتذبوا الناس إلى الحقائق التي يتبجَّح كلٌّ واحد منهم في امتلاكها. تجاه هذا الأمر، تبيَّن لأوريجانيس أنّ الإيمان يبقى ناقصًا إذا لم يقترن بمبادئ العلم والمنطق.

ومن ناحية ثانية، وعلى مثال ما كان قد سعى إليه كلٌّ من يوستينوس في روما وإكليمنضوس في الإسكندريّة، شعر أوريجانيس بالحاجة إلى بذل المزيد من الجهد الفكريّ والعلميّ الواجب توظيفه في خدمة الانتشار المسيحيّ.

هكذا بدا لأوريجانيس أنّ انتشار المسيحيّة يجب أن يتمّ بواسطة التوافق بين العلم والإيمان. وبينما كان بعض المفكّرين المسيحيّين يبحثون عن تعبير لمعطيات إيمانهم بواسطة الفلسفة اليونانيّة، اتّخذ أوريجانيس لنفسه سبيلاً مختلفًا. فانطلاقًا من الكتاب المقدّس، سعى أوريجانيس جاهدًا لإيجاد تركيبة مسيحيّة تجمع ما بين الحقائق الإيمانيّة الموحاة والمبادئ العقليّة المكتسبة. فبدل الفلسفة اليونانيّة، وضع أوريجانيس الكتاب المقدّس، وبدل أفلاطون وأرسطو، أصبح بولس وبطرس مرتكز اللاهوت والفكر المسيحيّ.

فلأوّل مرّة في تاريخ الكنيسة، يُصبح اللاهوت علمًا دينيًّا قائمًا بذاته يستند إلى حقائق الإيمان ويبلغ إلى استنتاجات عقليّة.

فـالباحث عن الله لا يمكن أن يصـل إليه عن طـريق الفلسفـة اليونانيّة، بل عن طريق المسيح، أي بواسطة الكتاب المقدّس. فكما أنّ المسيح هو الوسيط بـين الله والإنسان، هكـذا الكتاب المقدّس يُصبح وسيطًا بين العقل والإيمان.

الفصل السادس

الأوريجينيّة أو تأثير فكر أوريجانيس . . .

الأوريجينيّة هي النظام اللاهوتيّ المنسوب إلى أوريجانيس والذي قامت بسببه المشاحنات اللاهوتيّة انطلاقًا من القرن الثالث ولغاية القرن السادس. فالكنيسة، وإن لم ترفع رجل الله هذا فوق المذابح، فإنّها تكنّ له كلّ تقدير واحترام، لكونه أضحى عميد اللاهوتيّين. فقد قال فيه أحد أخصامه الوثنيّين إنّه «كان يعيش مسيحيًّا ويفكّر يونانيًّا».

ومن مبادئ الأوريجينيّة التي انتشرت بعد أوريجانيس، والتي أوردناها سابقًا، نذكر ما يلي:

١ ـ وحدة الله وبساطته، وأبديّة الروح.

٢ ـ أقانيم الثالوث متساوية في الله. لكنّه يُخشى أن نجد في تفكير أوريجانيس غموضًا في مفهوم انبثاق الابن والروح القدس، فنصل إلى تبعيّة خضوع للآب من قبل الابن والروح القدس.

٣ ـ الخليقة حرّة. فالله خلق أوّلاً الأرواح، ولمّا أخطأت، طردها

إلى العالم المادّيّ لكي تتطهّر وتعود بعدئذٍ إلى مصدرها.

٤ ـ المسيح هو الكلمة المتّحد مع نفس طاهرة. وبواسطة هذه النفس، وجد المسيح له سبيلاً إلى الاتّحاد مع الجسد المادّيّ، وبالتّالي إلى التجسُّد.

٥ ـ المسيح حاضر حقًّا في القربان المقدّس على وجه رمزيّ ومستتر.

٦ ـ يدخل الإنسان إلى الكنيسة بواسطة المعموديّة.

٧ ـ يجب أن يكون التكفير عن الخطايا قاسيًا لكي تُصبح الندامة فاعلة.

٨ ـ في ختام الأزمنة، سنقوم جميعًا وقد لبسنا جسدًا جديدًا. وسيتسنّى للخطأة أن يكفِّروا عن خطاياهم ويخرجوا من جهنّم مع الشياطين، بعد أن يغفر الله لهم، لكي يتّحد الجميع بالله ويُصبح الله الكلّ في الكلّ.

في تفكير أوريجانيس، نجد بعض المغالطات اللاهوتيّة منها اعتقاده بأنّ الأرواح البشريّة مخلوقة قبل الأجساد، وعودة الأنفس الخاطئة إلى الله بعد المغفرة النهائيّة... لكنّ أوريجانيس لم يُبد يومًا عنادًا في آرائه، ولا تشبّث بأفكاره كما فعل بعض الهراطقة الذين انفصلوا عن جسم الكنيسة. فقد كان يتمتّع بإيمان كبير، ويتمسّك بشكل قاطع بتراث الكنيسة، خاصّةً وإنّه لم يهدف يومًا

إلى بناء نظام لاهوتيّ جامد، كما سبق وقلنا، بل كان يسعى بالتأمُّل إلى فهم أعمق لحقائق ومبادئ الإيمان المسيحيّ، من هنا انفتاح عقلة وليونة أفكاره. . .

١ ـ تأثير أوريجانيس في القرنَين الثالث والرابع

إعتنق العديد من المفكّرين المسيحيّين، في القرن الثالث، أفكار أوريجانيس، خاصّةً في الإسكندريّة وفي فلسطين، ومنهم دنيسيوس وبمفيليوس. . . وبالمقابل، فقد قامت في أنطاكية معارضة قويّة لبعض أفكار وطروحات أوريجانيس، وخاصّةً لما يتعلّق بنظريّة أزليّة الأرواح.

أمّا في القرن الرابع، فلم تجد نظريّة أوريجانيس حول مفهوم الثالوث، وخاصّةً موضوع انبثاق الابن من الآب، أيّة حماسة عند المفكّرين المسيحيّين، إذ إنّ مجمع نيقية في سنة ٣٢٥ كان قد أعلن الوحدة الجوهريّة بين الآب والابن، واضعًا حدًّا لأيّة تأويلات حول هذا الموضوع.

ومن جهة أُخرى، فقد عرفت طريقة أوريجانيس، في شرح الكتاب المقدّس، انتشارًا واسعًا، فاعتنقها العديد من الآباء

والمفكّرين ومنهم: غريغوريوس النازينسيّ، وغريغوريوس النيصيّ، وباسيليوس القيصريّ.

أمّا فلسفة أوريجانيس فقد عرفت انتشارًا في مصر وخاصّةً في أورشليم داخل الأديار وما بين النسّاك. ومن معتنقي هذه الفلسفة افاغروس البُنطيّ.

٢ ـ تأثير أوريجانيس في القرنَين الخامس والسادس.

إثرَ المشاحنات اللاهوتيّة التي قامت في الأوساط الرهبانيّة حول أفكار أوريجانيس، ولتجنُّب الصراعات المذهبيّة، أصدر الأمبراطور يوستنيانوس، في سنة ٥٤٣، منشورًا يُدين فيه النظريّة الأوريجينيّة. ثمّ ما لبث أن انعقد المجمع المسكونيّ في القسطنطينيّة سنة ٥٥٣ وأصدر في دوره أحكامًا بالحرم على نظريّات أوريجانيس في عدّة نقاط لا تتوافق مع النظرة اللاهوتيّة المسيحيّة التي حدّدها المجمع.

الختام

إختلف المفكّرون والمعلّقون على موضوع فهم فكر أوريجانيس. فكانت استنتاجاتهم تتنوّع بمقدار تنوُّع واتّساع فكر أوريجانيس. فبدا للبعض كأنّه فكر فلسفيّ ذو منحى أفلاطونيّ...

وأظهر البعض الآخر التناقض بين الإيمان التقليديّ عند أوريجانيس وما سموّه نظامه الفلسفيّ!! ورأى آخرون أنّ فكر أوريجانيس يحتوي على حكمة صوفيّة... ومنهم من ميّز بين روح الاندفاع والحميَّة عند الشابّ أوريجانيس، ورصانته الروحيّة البادية في شيخوخته...

لكن ما يمكن تأكيده هو أنّ أوريجانيس لم يهدف مطلقًا إلى بناء نظام مذهبيّ ثابت، بل كانت توجُّهاته أشبه بدعوة موجَّهة إلى كلِّ روح بشريّة كي تتجدّد وتسمو، من خلال التمارين الروحيّة، إلى مستويات سامية في الحياة الروحيّة والجرأة الفكريّة...

فمَن يقرأ أوريجانيس لا يمكن إلاَّ أن يهتزّ في أعماقه أمام هذا «الرجل الفولاذيّ». فالقدّيس هيلاريوس يستلهمه، والقدّيس

أمبروسيوس ينقله إلى بلاد الغرب، والقدّيس هيرونيمُس يتمسّك به أوّلاً، ثمّ يحمل عليه... والقدّيس أوغسطينس يتعلّق به. هذا في القرنَيْن الرابع والخامس. لكنّ القرون التي تلت عاشت أيضًا على بقايا فكره حتّى إنّنا نرى أثرًا لمنهجيّته في شرح الكتاب المقدّس، في روحانيّة القدّيس برنردوس، في القرن الحادي عشر، وعند القدّيسة تريزيا في القرن السادس عشر...

هكذا، وبعد المسيح بمئتَي سنة، وقبل أوغسطينس بمئتَي سنة، ينتصب أوريجانيس عملاقًا وقد أعطى كامل قامته إلى اللاهوت المسيحيّ.

نصوص مختارة

النصّ الأوّل

ذبيحةُ إبراهيم

أعيروا آذانكم أنتم، يا مَن أَتَوا أمام السيِّد ويدَّعون بأنّهم مؤمنون. فمن خلال النصّ الذي استمعتم إليه (سفر التكوين ٢٢) اعتبروا وتنبّهوا كيف يتمُّ امتحان إيمان المؤمنين (. . .).

فالرجل الذي نتكلّم عنه كان يُدعى أَبْرام. لا يرد في النصّ أنّ الله يدعوه بهذا الاسم، خاصّةً وأنّه مزمع أن يغيِّره. فالله يدعوه بالاسم الذي أعطاه إيّاه. . . ويردّده. وإذ يجيب إبراهيمُ بأنّه مستعدّ لسماع الربّ، يتابع الله فيقول: «خذ إسحٰق، ابنك الذي تحبّه، وأصعده على أحد الجبال الذي أريك، وهناك تقدّمه ذبيحةً محرقة لي» (سفر التكوين ٢٢).

فالله يشرح لإبراهيم الاسم الذي أعطاه إيّاه: «لأنّي جعلتك أبا جمهور أممٍ» (سفر التكوين ١٧، ٥). فقد أعطاه هذا العهد يومَ لم يكن له من ابن سوى إسماعيل. وأكَّدَ له بأنّ العهد

سيتحقّق يوم تلد له سارة ولدًا. فأشعل في قلبه الحبّ الأبويّ، لا لأنّ ذرّيّة ستخرج منه فقط، بل لأنّه أعطاه رجاء تحقيق هذا العهد أيضًا.

وها هو هذا الابن الذي يحمل العهد، والذي مُنح إبراهيم بسببه اسمه... يُطلب منه الآن أن يُقدِّمه محرقة للسيّد على أحد الجبال. فماذا تقول يا إبراهيم؟ ما هي الأفكار التي تقلق قلبك؟ لقد تكلّم الله كي يمتحن إيمانك، فماذا تقول؟ وبماذا تفكّر؟... ألا تقول في ذاتك بأنّ الذي أعطاني العهد لا يمكنه أن يكون كاذبًا؟ فمَهما حصل فإنّ العهد سيتحقّق.

صدِّقوني، أشعر هنا بأنّني صغير جدًّا وغير قادر على أن أدرك حقيقة الأفكار التي راودت أبانا إبراهيم. ولن يمكنني أن أفهم الشعور المضطرم في قلبه لدى سماعه صوت الربّ يمتحنه طالبًا إليه التضحية بابنه الوحيد. وبما أنّ «أرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء» (الرسالة الأولى إلى الكورنثيّين ١٤، ٣٢)، نرى بولس الرسول يدرك، بواسطة الروح القدس، الشعور والأفكار التي كانت عند إبراهيم، فيوضّحها عندما يقول: «بالإيمان امتُحِن إبراهيم فقرَّب إسحٰق وحيده، ذاك الذي جُعلت له المواعد، وقيل له: «بإسحٰق سيكون لك ذرّيّة تحمل اسمك». وأعتقد أنّ «الله قادر حتّى على إقامة الأموات». (الرسالة إلى العبرانيّين ١١، ١٧).

والرسول أفصح لنا عن أفكار رجل الإيمان هذا. فالإيمان بالقيامة ظهر أوّل مرّة في قصّة إسحٰق. فإبراهيم كان يأمل قيامة إسحٰق، وكان له الإيمان بأنّ ما لم يتمَّ الآن سيتحقّق في ما بعد. فكيف يكن لأحد أن يعتبر نفسه ابنًا لإبراهيم، إذا لم يؤمن بأنّ الذي تحقّق بالمسيح هو نفسه الذي اعتقد إبراهيم أنه مزمع أن يتحقّق في ابنه إسحٰق؟ ولكي نتكلّم بطريقة أوضح، نقول إنّ إبراهيم كان يدرك مسبقًا حقيقة أساسيّة وهي أنّه كان يعلم بأنّ من ذرّيّته سيولَد المسيح الذي سيُقَدَّمُ ذبيحة عن الكون كلِّه، ثمّ يقوم من بين الأموات.

(. . .)

بكّر إبراهيم من الغداة وأكفَّ حماره وأخذ معه غلامَيْن وإسحٰق ابنه وشقّق حطبًا لمحرقة، وقام ومضى إلى الموضع الذي أشار له الله إليه. لماذا يذكر الكتاب أنّ إبراهيم قام باكرًا؟ ربّما ليبيّن أنّ فجر النور كان يسطع في قلبه. . . فهو لم يحاجج نفسه، ولم يرتجف، ولم يكلِّم أحدًا عن مشروعه، بل هوذا ينطلق مباشرةً في طريقه. . .

يصل إبراهيم، في اليوم الثالث، إلى الموضع الذي عيّنه له الله. سأعود إلى السرّ المعبَّر عنه باليوم الثالث. فلنعتبر الآن الحكمة والمخطَّط في تصميم الله على امتحان إبراهيم. فالموضع

ليس فيه جبال، والذبيحة يجب أن تتمّ فوق القمم، فالطريق إذًا طويلة وتدوم ثلاثة أيّام، وقد أحاط القلق قلب إبراهيم خلالها، واستعذب حنانه الأبويّ. وطوال هذا الانتظار، كان الاب يتأمّل ولده، كان يتناول معه وجبات الطعام؛ وخلال الليالي كان الولد يعانق أباه، ويلتصق بصدره، ويُلقي رأسه على قلبه. أُنظروا هذه التجربة كم هي قاسية في أوجها.

واليوم الثالث مشبع بالأسرار. فبعد أن خرج من مِصر، قدَّم الشعبُ ذبيحةً إلى الله في اليوم الثالث، وفي اليوم الثالث تمّ التطهير. وقيامة الربّ تمّت في اليوم الثالث. هذا النهار يحمل أسرارًا أُخرى عديدة...

(من العِظَة الثامنة حول سفر التكوين)

النصّ الثاني

«. . . كلُّ جسد خاضع لقوانين الطبيعة، أي أنّه يتغذّى ويتطوّر، ويغيِّر بدون انقطاع تكوينه المادّيّ الأساسيّ. وبالرغم من أنّ هذا التكوين الأساسيّ لا يستمرّ في ذاته أكثر من يومَيْن متتاليَيْن، يمكننا التأكيد أنّ هذا الجسد هو الجسد نفسه لفلان بالأمسِ واليوم. (. . .) فالشكل المميَّز للجسد يبقى هو نفسه، كذلك الملامح التي تميِّز جسد بطرس عن جسد بولس. وهذا الشكل الجسديّ تلبَسه النفس المتجمِّلة مرَّة أخرى عند القيامة، وقد تخلّى عن تكوينه المادّيّ الأساسيّ الذي أُعْطِيَ له في البدء.

فكما أنّ هذا الشكل يستمرُّ هو هو من الطفولة إلى الكهولة، بالرغم من تغيير بعض القَسَمات والملامح، كذلك يمكننا أن نفكِّر في أنّ هذا الشكل الحاليّ للجسد يستمرّ هو نفسه في المستقبل، لكنّه يكون مجمَّلاً في صورة فائقة الحدّ. يجب أن يكون للنفس، التي تسكن جوار الأجساد، جسدٌ على غرار الأجساد الساكنة في الجوار. فإذا اضطُررنا إلى العيش في مياه البحر كالحيوانات المائيّة، فإنّه يجب أن يكون لدينا خياشيمُ وزعانفُ كالأسماك. كذلك، كي نرث ملكوت السماوات ونسكن منطقة مختلفة عن الأرض،

يجب أن تكون لنا أجسادٌ سماويّة.

فشكلُنا الأصليّ لن يختفيَ، لكنّه يصبح ممجَّدًا، كما هو شكل المسيح وشكل موسى وإيليّا، الذي بقي هو هو عند التجلّي. فيجب ألاّ يتشكّك أحدٌ إذا قلنا إنّ التكوين المادّيّ الأساسيّ لن يبقى هو نفسه... ويجب أن نلاحظ هنا أنّ خصائص «الجسد» المزروع في «الأرض» هي غير الخصائص التي هي للجسد القائم من الموت (الرسالة الأولى إلى الكورنثيّين ١٥/٤٤). فعندما يقول الرسول «إنّ اللحم والدم ليس في وسعهما أن يرثا ملكوت الله، ولا يسع الفساد أن يرث ما ليس بفساد» (الرسالة الأولى إلى الكورنثيّين ١٥/٥٠)، كأنّه يريد أن يعلِّمنا أنّنا نتخلّى عن خصائص الأرض عندما نحتفظ بالشكل يوم القيامة. فجسدُ القدّيس يحفَظُه ذاك الذي أعطى الشكل للجسد. فالجسد لن يبقى، بل الملامح المطبوعة على الجسد هي التي تصبح مطبوعةً على الجسد الروحانيّ. (تعليق على المزمور رقم ١)

النصّ الثالث

«. . . إنّه لِمَن غير المعقـول أن يجاهـر الإنسان بـأنّ العالَم، بالرغم من فنّ الخلق فيه، قد وُجد من تلقاء نفسه بدون تدخُّل فنّان خالق. كذلك الأمر بالنسبة إلى المادّة في حدّ ذاتها، بما لها من صفات الانصياع لكلمة الفنّان الإلٰهيّ، فإنّه من غير المعقول أن تكون قد تكوّنت بذاتها من تلقاء نفسها.

فالعديد من الفلاسفة يكتبون أنّ هناك إلٰهًا واحدًا خالقًا كلّ شيء: بهذا يكونون في توافقٍ مع شريعة الله. ويؤكّد العديد منهم أنّ الله صنع كلَّ شيء، وأنّه يوجِّه كلَّ شيء بكلمته، وأنّ كلمة الله هو الذي ينظِّم الكون. بهذا يكون الفلاسفة على توافقٍ، لا مع الشريعة فقط، بل مع الأناجيل أيضًا. . .».

(من عِظَة حول سِفْر التكوين)

فهرس المحتويات

المقدّمة ٥
الفصل الأوّل: حياة أوريجانيس ٧
الفصل الثاني: آثاره ١٥
الفصل الثالث: الكتاب المقدَّس في حياة أوريجانيس ١٩
الفصل الرابع: النظام اللاهوتيّ ـ «حول المبادئ» ٢٧
الفصل الخامس: مسيرة أوريجانيس ٣٣
الفصل السادس: الأوريجينيّة أو تأثير فكر أوريجانيس ٤١
الختام ٤٥
نصوص مختارة ٤٧
فهرس المحتويات ٥٤

صدر من «موسوعة المعرفة المسيحيّة»

آباء الكنيسة

١ ـ إغناطيوس الأنطاكيّ، الأسقف الشهيد
٢ ـ مار أفرام السريانيّ، معلّم الإيمان، المربّي المسيحيّ
٣ ـ أوريجانيس، عبقريّ المسيحيّة الأولى

هنري كريمونا أستاذ الفلسفة ومدير الدروس في مدرسة «الحكمة» بيروت. له أطروحة دكتوراه في الفلسفة ومقالات عديدة حول الالتزام المسيحيّ والعمل الكنسيّ. أسَّس حركة «أبناء النور» وهي تسعى إلى نشر الفكر والروح والمعرفة المسيحيّة.

منشورات:
دار المشرق - ص.ب: ٩٤٦
بيروت، لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقيّة - ساحة النجمة
ص.ب: ١٩٨٦ - بيروت. لبنان

[redacted]
٢,٧٥